الضعف والحب

الحب هو أحد المشاعر الإنسانية الجميلة، فيه رقة تضفى على الحياة رونقاً وفيه عذوبة تملؤها بهجة وبريقا، وكان الحب دائماً مرتعاً خصباً للأدباء والشعراء، ولا أظن أن هناك فنانا لم يتخذ من الحب مادة أساسية لكثير من أعماله، ولا يوجد فن من الفنون إلا وكان الحب هو أحد منابعه الرئيسية للإلهام والإبداع، وأغلب ما كتب فى الحب، كان موجهاً لهؤلاء المحبين الولهين العاشقين، حيث تأخذهم تلك الكتابات فى رومانسية طاغية، ليهيموا معها فى فضاء لا نهائى من الفتنة والمثالية، ولكن هل هذا هو واقع الحب؟ وهل تلك هى حقيقته؟... نعم هذا هو أحد وجوه الحب، ولكن ليست كل الوجوه، فللحب جانب آخر، لا يراه المحبون، ولا يريدون أن يروه، لأنه على طرفى النقيض من وجهه الأول، فبقدر ما فى الحب من متعة وسعادة، بقدر ما فى جوانبه الأخرى من قسوة وألم، ولا يدرك المحب هذا الجانب إلا حين يفرض عليه فرضاً، وهذا الجانب الآخر من الحب الذى كثيراً ما تجاهله الشعراء وتجنب الأدباء البحث فيه، هو المحور الذى يدور حوله هذا الموضوع.

فالحب حقاً مزيج غريب من المشاعر، فهو يحوى كل المتناقضات التى يمكن أن يدركها العقل البشرى، فيه الخوف وفيه الأمان، فيه اليأس وفيه الأمل، فيه الهزيمة والانتصار، فيه الترقب وفيه الانتظار، فيه قوة لا حدود لها، فهل هناك أقوى ممن يدافع عن حب صادق يأسر فؤاده، وهل هناك أشرس من إنسان يذود عن محبوبته فى مواجهة خطر يهددها، وكم ربط التاريخ بين قوة الحب، وكم كان للحب من أثر مباشر فى إخراج كل الطاقات الكامنة فى نفوس المحبين وجعلهم يواجهون الدنيا وما فيها فى سبيل حبهم، وكم من القصص والروايات كتب لها الخلود لأنها لمست عمق تلك الحقيقة، ومن منا لا يعرف روميو وقيس وشمشون وعنترة، وغيرهم وغيرهم، وهكذا يبدو أن القوة فى الحب هى القيمة الأقوى والأوضح والأكثر تأثيراً لكن الواقع والحقيقة ينبئان بغير ذلك، فهناك فى الخلفية البعيدة يقبع الضعف، ملتحفا بالظلال، صامتا ساكنا، لكنه فاعل ومؤثر، بل هو أكثر تأثيراً على مجريات الأمور من أى شىء آخر، وكل مشاعر الحب إنما هى نتاج لهذا الضعف أو الخوف منه، وأغلب الخلافات فى العلاقات العاطفية ستجد لها الحلول إذ توصلت لفهم أوضح وأعمق لقيمة ومعنى الضعف فى مثل تلك العلاقة.

● فالحب فى أساسه ضعف، ولولا ضعف الإنسان فى مواجهة من يحب، لما تكوّنت تلك القوة لديه فى الدفاع عن محبوبته، وكلما ازداد تعلقه بمن يحب ازداد ضعفه، وازداد أيضا عنفه وقوته فى الذود عن هذا الحب، إذن الضعف هو البداية وليس القوة، وتأتى القوة نتيجة له، أو أن القوة هى وليدة الضعف، ولكن لأن فى العلاقة العاطفية المتعادلة يكون الحب متبادلاً، فبالتالى يكون أيضاً الضعف متبادلاً وبنفس الدرجة، فلا يظهر الضعف على السطح، ويظل قابعاً فى مكمنه، ولكن فى علاقات غير متوازنة، وهى ليست قليلة، حيث يكون الحب والعشق والوله لدى طرف يتعدى بمراحل ما لدى الطرف الآخر، يخرج هذا الضعف من وكره، يطل برأسه القبيح ليصيب هذا المحب المسكين بمرارة الشعور بضعفه فى مواجهة من يحب، قد يصل ببعضهم أحياناً إلى حد الاستسلام الكامل فى خضوع، ليترك للطرف الآخر التحكم والسيطرة.

تلك صورة مشوّهة للحب، وكثير من الناس يرفض النظر إلى هذا الحب الرائع الجميل تلك النظرة السلبية، ولكل سواء قبل الإنسان أو رفض، سواء أحب أو كره، تلك هى الحقيقة، وهى حقيقة فاعلة ومؤثرة وتحمل فى طياتها الكثير من التفسير لمواقف، قد تبدو غامضة لدى عدد غير قليل من الناس.

● فعندما يقدم إنسان على علاقة عاطفية ما، لا يكون محكوماً بعاطفته فقط، بل تتصارعه قوتان، قوة تدفعه للأمام والمتمثلة فى غريزته الطبيعية وعاطفته تجاه الجنس الآخر وإعجابه بشخص ما، وقوة أخرى تجذبه للخلف، فى جزء منها تخوّفه من نظرة المجتمع لهذه العلاقة، خاصة لدى الفتيات فى المجتمعات المحافظة، وفى جزئها الآخر وهو الأكثر تأثيرا، تخوّفه المستتر من ذاته، من ضعفه، أو رفضه لهذا الضعف، فهو فى حاجة إلى الكثير من الضمانات التى تشيع فى صدره الأمن والارتياح، وتساعده على التقدم فى طريقه بدون قلق أو تردد، فهو يريد أن يتأكد أنه يضع قلبه، هذا الطفل الرضيع، هذا العصفور الصغير الذى لم يتعلم الطيران بعد فى يد أمينة، لا تؤذيه، لا تتلاعب به، ولا تجرحه ثانياً، هو أيضاً فى حاجة

لأن يتأكد أن الطرف الآخر يبادله نفس القدر من الضعف أو أكثر منه، ولكن ليس أقل منه، فقليل من الناس من هم على استعداد أن ينخرط فى علاقة غير متكافئة، يكون فيه الطرف الأضعف، أو أن يكون الضعيف الأوحد في علاقة ما، فعزة نفسه وكرامته تأبى عليه ذلك، لذلك دائماً ما ينتظر كل طرف من الآخر أن يتقدم خطوة على طريقة الضعف، ليتقدم هو الآخر خطوة مثلها، حتى وإن كانت تتملكه الرغبة فى الانطلاق فى هذا الطريق إلى نهايته، إلا أنه يكبح جماح رغباته مفضلا أن يقوم برد الفعل على أن يقوم بالفعل ذاته.. ولولا هذا الضعف والخوف منه لما وجدت العاطفة أى كوابح لها وكانت انطلقت منذ أول لحظة إلى نقطة النهاية. حتى أنه فى بعض الأحيان بعد أن تتضح العلاقة وتأخذ شكلاً ثابتاً ودائماً بين المحبين، يظل هذا التوازن يؤرق أحد الطرفين كلما شعر أن هناك خللا يعتريه، وأن كفة الضعف مالت ناحيته لمصلحة الطرف الآخر.

● هكذا نلاحظ أن المشاكل دائماً ما تنشأ بسبب هذا الضعف أو تخوف أحد الأطراف منه، ويكون حجم تلك المشاكل متناسباً مع درجة حساسية أحد الطرفين أو كليهما له، والخوف هذا فى جزء كبير منه أمر متعلم، ينشأ ويترعرع ويتراكم مع مرور الزمن نتيجة التعرض لخبرات سابقة، يراها الفرد، يعايشها عن قرب، تؤثر فيه، وترسّخ فى أعماقه انطباعات ومفاهيم تبقى فى العقل الباطن، ولكنها تظهر على السطح دون أى توجيه واع من الشخص ذاته حين يصبح هو طرفاً فى علاقة مشابهة.

لهذا يختلف الناس فيما بينهم فى أسلوب تعاطيهم لعلاقاتهم العاطفية، ولكن هذا ليس هو السبب الوحيد فى هذا الاختلاف، إنما السبب الأساسى والأهم يكمن فى طبيعة المحبين ذاتهم، فهناك من يتقدم بلا تردد، وهناك من يتردد ولا يتقدم، وهناك من يحب بشراهة، وهناك من يحب بفتور، وهناك من يسيطر وهناك من يقاوم، وهناك من يستسلم لعلاقة غير متكافئة.

ما هو السر إذن وراء هذه الاختلافات، وما هى المكونات فى الطبيعة البشرية التى تؤدى إليه؟

الضعف فى الحب له مكونات تختلف عن الضعف فى المجالات الأخرى، وهو قائم على مجموعة من السمات المتأصّلة فينا، أهمها سمة العاطفية، والإيحائية والجرأة والمبادأة والإرادة والضمير وتقدير الإنسان لذاته وحساسيته تجاه كرامته.

- وسمة الإيحائية هى التى تبتعد بالإنسان عن الواقعية وتحدد مدى تأثره بالأمور المعنوية على حساب الواقع والمنطق، كما أنها تعبر عن استعداد الإنسان للتأثر بالآخرين وبالتالى الانجذاب السريع لهم، كما تعبر عن قابليته لرؤية الواقع على غير حقيقته تبعاً لمشاعره والاندماج فى عالم من الخيال.

- أما سمة العاطفية فهى تعبر عن قدرة الإنسان على التجاوب العاطفي، ومدى سطوة عاطفته عليه.

- سمة الجرأة والمبادأة وهى التى تحدد استعداد الفرد لاتخاذ مواقف إيجابية، والقيام بالفعل فى ثبات وعدم تردد، وبالتالى الإقدام على التعبير عن مشاعره لمن يحب أو الإحجام رغم وجود الرغبة فى الإفصاح عنها.

- أما الإرادة، فكما ذكرنا سابقاً هى التى تحدد قدرة الإنسان على توجيه حياته فى الاتجاه الذى يريده، وعدم الاستجابة لضعف نفسه، ويأتى دورها فى مواجهة الإنسان لذاته حين ينساق فى علاقة غير متكافئة.

- الضمير، هو القاضى الداخلى لنا، الذى يحاسبنا على هفواتنا وزلاتنا وهى سمة تعبر عن مدى التزامنا بمبادئنا وبقيم المجتمع الذى نعيش فيه، وهى ذات أهمية فى العلاقات العاطفية التى تحدث فى المجتمعات الملتزمة المتحفظة، كمجتمعاتنا العربية، حيث إنها تمثل إحدى القوى الفاعلة فى ميزان الموانع وخاصة لدى الفتيات.

- الكرامة وحساسية الإنسان لعزة نفسه وكبريائه، وهى أحد الموانع التى قد تؤدى ببعض الناس إلى التردد فى التعبير عن مشاعرهم، لرغبتهم فى عدم اتخاذ موقف ضعيف قد يؤثر سلباً على تقديره لذاته، أو احتمال أن يكون فيه مساس بكرامته.

وتلك السمات تختلف فى درجاتها من إنسان لآخر، وتتفاعل تلك السمات بدرجاتها المختلفة مع بعضها البعض لتعطى نمطاً معيناً من السلوك، لنجد فى النهاية عدداً كبيراً من أنماط السلوك المختلفة فى العلاقة العاطفية.. على هذا، الذى يتميز بالإيحائية ولا يتميز بالعاطفية، فهو يتأثر ويعجب وينجذب، ولكن بصورة وقتية وسطحية ولا يقيم علاقة عاطفية ثابته أو ممتدة، كما نلاحظ فى بعض الشخصيات الهستيرية .والذى يتميز بالجرأة والمبادرة، يقدم على التعبير عن مشاعره، فى حين أن من يفتقدها، يظل محتفظاً بمشاعره مكتوبة بداخله، وإذا كان شديد الحساسية لكرامته، يظل معجباً صامتاً، منتظراً أن يتخذ الطرف الآخر الخطوة الأولى، ومن يتميز بالعاطفية ولكنه لا يتميز بالإيحائية ويفتقد للمبادأة، يجد صعوبة فى تكوين علاقة ما، لأنه لا يتأثر بأحد بسهولة، حتى وإن تأثر فسوف يتردد فى أن يقدم على التعبير عن مشاعره، فى حين أنه يظل يعانى من احتياج لمثل تلك العلاقة، ومن يتسم بالإيحائية والعاطفية والجرأة معا، يتأثر وينجذب ويحب ويقدم على التعبير عن حبه لمن يحب، وبذلك يلقى بالكرة فى ملعب الطرف الآخر، فإذا كان هذا الآخر يتميز بدرجة عالية من العاطفية، وكان هناك قبول مبدئى له تتولد بينهما مشاعر الحب الجميلة فى العلاقة متكافئة ومتوازنة، ولكن إذا لم يكن، بمعنى أنه يتسم بدرجة محدودة من العاطفية، أو كانت لديه أسباب أخرى اجتماعية أو شكلية أو غيرها تحول بينه وبين انجذابه له، لا يحدث التجاوب الكافي، أو تصبح علاقة غير متكافئة، وقد تتوقف العلاقة عند هذا الحد، ولا يشعر الطرف الأول إلا ببعض الحزن لبعض الوقت لأنه فشل فى تكوين علاقة مع من شعر بإعجاب تجاهه، ولكن إذا اختار أن يتمادى فى مثل هذه العلاقة أو

د طارق درويش
استشارى الطب النفسى

إذا استغلها الطرف الآخر، عندها يبرز الضعف بأنيابه، يطل بوجهه القبيح ليسيطر على هذا المسكين، ويجعله أسير حبه، أسير محبوبه فى عبودية مستترة، تصل أحياناً إلى استسلام كامل وتبعية مطلقة، هنا يأتى دور الإرادة فى قبول أو رفض هذا الشكل من العلاقة، والبعض يختار الاستسلام.

●●●

وهنا نلقى بعض الضوء على هذا النموذج من العلاقات غير المتكافئة، التى يبرز فيها الوجه القبيح للحب فى أجلّ معانيه، وكثيرا ما نرى نماذج فى حياتنا من هذا القبيل ونتساءل فى تعجب، كيف ولماذا يتقبل هذا المسكين كل هذه المعاناة؟ كيف يرضى بكل هذا الامتهان وهذا الذل وهذا الخداع، وكيف يصدق بهذه السذاجة أكاذيب من يخدعه ولا يستمع لنصح الناصحين ولا يلقى بالاً لتحذير الأوفياء والمخلصين.. الإجابة أن هذا هو الحب، وهذا هو الضعف فيه، فالحياة بكل ما فيها تتقلّص وتتضاءل، والسعادة الدنيا تتجمع فى بؤرة صغيرة واحدة، هى لحظة رضاء المحبوب، ويصبح العقل والفؤاد أسيرين لتلك اللحظة، يحلم بها وهى شحيحة، يتمناها وهى بعيدة، يسعى إليها وكأنها الهدف الأوحد فى الحياة، لذلك فهو لا ينخدع بأكاذيب من يحب، فهو يعلم أنها أكاذيب، ولكنه لا يملك إلا أن يصدقها، فليس هناك فى جعبته بدائل، ولا يملك حرية الاختيار، فهو يسير فى طريق واحد عاجز عن تغييره، ولا داعى إذن لأن يشغل باله بحسابات كثيرة، لأنه أصبح بداخله قناعة أن المحصلة فى النهاية واحدة، هى أنه سيظل أسيراً لهذا الحب اللعين.

● وعلى هذا، فالضعف فى الحب هو نتاج للارتفاع فى درجات تلك السمات التى تحدثنا عنها سابقاً، ومن يعانى من الضعف فى حبه، أو يقع فريسة لهذا النوع من الحب، يجب عليه أن يعى المعنى الحقيقى للحب، فالحب بذرة، بأيدينا زرعناها، فى أرض خصبة بداخلنا متشوقة له، وبوهمنا وخيالنا رويناها، إلى أن كبرت وترعرعت وملأت قلوبنا وعقولنا، فإذا عادت علينا بالخير والسعادة، حافظنا عليها وصناها، ولكنها إذا شوّهت حياتنا ومزّقت كرامتنا وجرحت كبرياءنا، خلعناها من جذورها، وكما زرعناها قلعناها وسحقناها.

وهذا ليس بكلام أدبى أجوف، إن كل حرف فيه له معنى ودلالة، فكل إنسان سوى فى هذه الدنيا مهيأ للحب، فهو يملك شحنة عاطفية قد تختلف فى درجتها من إنسان لآخر، ولكنها متواجدة فى الجميع، وهى فى حاجة للتعبير عن نفسها، كما أن بكل منا فراغا عاطفيا يحتاج لمن يملؤه، لذلك الكل فى حاجة إلى التجاوب العاطفي، وقلوبنا هى أرض خصبة لأى بذرة عاطفية تزرع فيها، ولكنك أنت الذى تختار إنساناً بعينه وتزرعه بداخلك، ليكون هو المنبع الذى تصب فيه وعليه تلك الشحنة الكامنة بداخلك، وتستمد منه الشحنة المقابلة، ولكنه يكبر بداخله، وأنت الذى تعطيه تلك الفرصة، فكم عاش فى خيالك، وكم استحوذ على تفكيرك، إلى أن تضخم وتفاقم واستأثر بك، وهنا يكمن الداء كما يكمن الدواء، فالأمر ليس إلا تركيز ذهنى، فيم أنت تفكر، ولأى مدى يشتغل هذا الأمر فكرك، وفى أى جانب منه، فلو أنت ارتبطت بأسوأ الناس وظللت تفكر فيه، واحتفظت به فى ذهنك الليل والنهار، وأمعنت فكرك فى المقابل، إذا التقيت إنساناً يتميز بالكثير من الصفات الحسنة، ويملك كل مقومات الجاذبية، ولكنك بمجرد أن تركته لم تفكر فيه لحظة بعدها، فهو لن يمثل أى قيمة بالنسبة لك، إذن وهمنا وخيالنا هو الذى يصنع الحب وهو الذى ينميه ويعمقه بداخلنا، فلنفرض مثلا أن هناك شخصا قبيح الشكل، مشوّه الجسد، سيئ الخلق والنية، ولكنه يملك عينين زرقاوين واسعتين، وصوتاً هادئاً رخيماً ذا جاذبية خاصة وقوة فى التأثير، إذا أنت أمعنت فكرك فى سلبياته الكثيرة أو قمت بتقييم عام وصادق له، قد لا تستسيغه وقد تشعر بمقت له، ولكنك إذا ركزت انتباهك فقط على زرقة عينه، وظل يتردد فى أذنك سحر صوته الرخيم، واحتفظت بهما فى فكرك وكأنهما كل ما يمثله هذا الإنسان، ستشعر بإعجابك تجاهه وتعلق به يحتويك ويسيطر عليك.

● كل إنسان على وجه هذه الأرض ستجد فيه الإيجابيات كما تجد فيه السلبيات، وأى إنسان تمعن الفكر فى إيجابياته سيعجبك، وإى إنسان تركّز فكرك على مساوئه ستمقته، **لذلك فالحب هو صنيعتنا، نحن نبدؤه، ونحن نغذيه بخيالنا وفكرنا ونسلمه لجام خيلنا ليسيطر علينا بوهمنا وضعفنا، وهو فى حقيقة الأمر وهم كاذب، لأن ما نصنعه بأنفسنا هو ملك لنا ولسنا ملكا له، إذن كل الأمر بأمر بأيدينا، كما ملكنا له البداية نملك له النهاية، وكما بعثنا فيه الحياة، نستطيع أن نسلبه إياها ليذبل ويموت**، وبنفس الطريقة أيضا فكما زرعناه فى فكرنا فلنخلعه منه، بإرادتنا، بعزيمتنا وبإصرارنا، لنطرده من ذهننا، لنبعده عن خيالنا، لنخلّص عقلنا من سطوته عليه، لنذهب بفكرنا بعيداً كلما ألح علينا أو حاول أن يفرض نفسه على وجداننا، ولنمعن الفكر فى سلبيات وعيوبه ومساوئه، ولا نسمح لإيجابياته أن تطل برأسها، أو تفرض نفسها علينا كما كان فى السابق، بهذا الشكل، يتضاءل وجوده بداخلنا، ويفتر تأثيره علينا، وتتحرر قلوبنا وعيوننا منه، بما يسمح لنا أن نرى من هم دونه، وأن نعى أن الحياة فيها أشياء أخرى غيره، وأن مباهج الدنيا كثيرة، ولكنه كان يحجب عنا رؤيتها، وأنه يمكن أن تكون هناك سعادة بدونه، فيتضاءل الضعف فى نفوسنا شيئاً فشيئاً وينقشع الوهم، وتبدأ البسمة فى العودة إلى شفاهنا، ونستعيد الثقة المفقودة، وتعود الدنيا إلى سابق عهدها، ونبرأ من ذلك الحب اللعين.

ولكن يجب أن تحذر سماتنا، فهى أصل ضعفنا، ستحاول أن تجذبنا للخلف وتعود بنا إلى الوراء، يجب ألا ندع لها الفرصة، فوعينا بها يجب أن يحصننا منها، ويحمينا من أن نتركها تخدعنا، ونحن لا ننكر أنه ليس فى مقدورنا تغييرها، فهى عميقة وأصلية فينا، ولكن فى مقدورنا تحجيمها، وتقليل درجتها بعض الشيء، وهذه هى حدود قدرتنا فى التعامل مع سماتنا، وقد يكون هذا ليس بالشيء الكثير، ولكنه كافٍ لأن يساعدنا على تحقيق ما نسعى إليه.